مصطفى كمال الزعيم التركى

بقلم الكونت سفورزا وزير خارجية إيطاليا

للأســـتاذ أحمد رمزى بك

— ١ —

منذ أشهر لمع اسم سفورزا فى المحفل السياسى الدولى وقد قلت إن مثله قليل فى السياسة ، وهو يذكرنى بكافور وعمر بنه ، الذى سبق الوحدة الإيطالية ، فإذا جاء [illegible] عودة المنتصرات لإيطاليا فهو خصم جبار لا يستهان به .

وإذا أردت أن تعلم من هوهذا الجبار فاقرأ له

[illegible]

أنى كتبته فى عام ١٩٢٧ حينما كنت أشغل وظيفة سكرتير فصل بمدينة تريستا بإيطاليا ، ولم يكن لدى من الوقت أو من الميل ما يشغلنى عن مثل هذه الأبحاث .

أعرضه على قراء الرسالة ليروا ناحية من نواحى سياسة الغرب حينما يتكلمون عن الشرق وأهله : فإن لنا فى كل هذا ذكرى وعبرة .

أحمد رمزى

من الغريب أن كتب التاريخ الحديث المستعملة فى المدارس الإنجليزية والفرنسية والإيطالية لا تزال تلقن الأطفال الذين ولدوا بعد الحرب العظمى أن تركيا من الممالك التى قهرها الحلفاء وفرضوا إرادتهم عليها ، مع أن الحقيقة بخلاف ذلك لأننا إذا حاولنا التفرقة بين الغالب والمغلوب ، رأينا أن الغالب هو الذى خرج من الحرب بمعاهدة حصل فيها على كل مطالبه ، والمغلوب هو الذى فقد كل معالمه وتنازل عما يدعيه من الحقوق التى كانت له قبل الحرب فى بلاد الآخر .

فمن من الطرفين الذى حصل على مطالبه ، الحلفاء أم تركيا ؟ لا نزاع فى أن تركيا هى التى وصلت إلى كل ما تطلبه من الحلفاء . وقد حصلت على ذلك بعمل رجلها مصطفى كمال .

* * *

عرفته لأول مرة وهو شاب فى الثامنة والعشرين من عمره وذلك فى سنة ١٩٠٨ حينما كان يشغل وظيفة أركان حرب محمود شوكت باشا قائد الجيش التركى الذى زحف على استنبول وأجبر السلطان عبد الحميد على منح الدستور لرعاياه . وكان شوكت باشا فى ذلك العهد آلة بيد جماعة الاتحاديين فى سلانيك ، تلك المدينة التى كانت مركز الثورة والتى تمخضت عن فكرة الانقلاب والاستيلاء على الحكم ، والتى اشتهر أهلها المسلمون بنزعتهم الوطنية فى تاريخ الانقلاب التركى . وقد نشأ مصطفى كمال بتلك المدينة وتشبع فيها بأفكار جماعة الأحرار ، وسرعان ما صار أحد خطبائهم العاملين على نشر الأفكار الثورية الحديثة بين الضباط فى الجيش

والذى يفسر لنا اختيار شوكت باشا إياه ليكون رئيساً لأركان حربه رغم حداثة سنه هو أن شوكت لم يكن عضواً بأحد الألواج المركزية لجماعة الثورة فاختار مصطفى كمال ليجتذب إليه ثقة أصحاب النفوذ فى الحركة ويفهمهم باختياره أحد المتحمسين لهم أنه مسلم بأفكارهم متبع لخطتهم .

وقد تمكن مصطفى كمال بعد اثنى عشر عاماً مضت على هذه الحوادث أن يصير رئيساً مطاعاً فى أمته ذا كلمة نافذة على الجيش ورؤسائه — ثم انتهى بعد ثلاث سنوات إلى تقلد رئاسة الجمهورية التركية — وبعد هذا نجاحاً عظيماً لأى شخصية ولو كانت وليدة عصر مملوء بالانقلابات والثورة .

* * *

إننى مع تفتى التامة بالنواحى الظاهرة من شخصية مصطفى كمال مثل همته المقترنة بالاقدام وشجاعته المقترنة بالتحوط والانتباه أرى عدم إغفال الإشارة إلى العامل الأساسى الأول الذى دفع به إلى قمة النجاح ، وهو عمل السياسة الإنجليزية فى تركيا بعد الحرب ؛ لأن مصطفى كمال وأنصاره ما كان فى وسعهم أن يفكروا أو يعملوا إلى عزل السلطان وحيد الدين أو الذهاب إلى أنقرة والعمل على تحطيم معاهدة سيفر المشؤومة — بغير حدوث الأغلاط التى ارتكبتها السياسة الإنجليزية فى بلادهم .

وإنه لجدير بمصطفى كمال أن يتخذ دونمج استريت حيث كان يقطن لويد جورج كعبة ينحنى أمامها لأنها كانت سبب صعود نجمه السياسى .

وفعلا قد اعترف بذلك رجال إنجلترة الرسميون ؛ ولا أريد بذلك لويد جورج الذى لا يكتب ولا يبوح — وإنما أقصد ونستون تشرتشل الذى اعترف بهذا فى كتابه عن مفاوضات الصلح — وطبيعى إنى لا أقصد بكلامى هذا مناقشة وتحقيق ما تم فى

هذا العهد الذى انتهى بالتسليم بوجهة النظر التى لمستها من أول الأمر وشرحتها من البدأ بطريقة إيجابية للجهات المسئولة .

* * *

انتهت حالة الحرب مع تركيا بهدنة مدروس التى تم التوقيع عليها على ظهر بارجة إنجليزية فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٩١٨ ولم ينص فى بنودها على شروط خاصة بنزع السلاح ولا تسريح الجيش بشكل قطعى ولا على العقوبات التى كان يجب أن توقع على الرجال المسئولين الذين باعوا ضمائرهم للدول الوسط .

ولما كانت فكرة تقسيم تركيا بعيدة عن الأنظار فى ذلك العهد ولم يكن أحد متوقعاً لها — وإن كانت السياسة الإنجليزية أعلنتها بعد ذلك وجعلتها غرضاً من أغراضها — لذلك لم تتخذ الاحتياطات اللازمة لتنفيذها ولم ينص على شىء من ذلك فى عقد الهدنة . وهذا يدهش طبعاً العقلية الألمانية أو الفرنسية التى اعتادت التفكير بشكل منطق منظم يتطلب النظر والاستعداد لكل حالة بعد وقوعها ، ويجعل الكثيرين حيارى أمام التغييرات التى تطرأ على السياسة الإنجليزية بل تجعل بعضهم يرمونها بأنها دائماً مقترنة بنكث العهود مع أن الحقيقة أن هذه التغييرات هى نتيجة للتسرع فى العمل أمام حالات طارئة ، وهذا التسرع تستدعيه طبيعة القرارات التى توجه السياسة لجهة معينة بغير الدخول فى التفاصيل التى يترك لمقتضى الأحوال تكييفها وتسييرها

قررت الحكومات الثلاث لدول إنجلترة وفرنسا وإيطاليا بعد عشرة أيام من إمضاء الهدنة تعيين ثلاثة مندوبين ساميين لتعهد مصالحها فى تركيا ، فعينت إنجلترة الأميرال كالثروب الذى عقد الهدنة مندوباً لها ، وعينت فرنسا الأميرال أميت قائد أسطول الشرق ، وتعينت أنا مندوباً عن إيطاليا فسافرت لتسلم عملى عن طريق كورفو ، وسافر معى جزء من الأسطول إلى استانبول .

ولما وصلنا تبين لنا أن الآلة الحكومية التركية قد تسلطت وفقدت سلطتها فأصبح من المهم علينا تحمل عبء الحكم مؤقتاً انتظاراً لما يقرره مؤتمر الصلح فى باريس .

وكانت القوات البحرية الراسية فى البوسفور والقوات البرية المسكرة فى تركية الأوربية كفيلة بضمان تنفيذ ما نقرره فى كل جهة . وكنا نعقد كل أسبوع اجتماعاً فى إحدى السفارات الثلاث تحت رئاسة المندوب المجتمع فى داره — وكان لتركيا فى ذلك العهد صدر أعظم يعمل فى الباب العالى ، وسلطان يقيم فى سراى ضولة بافجة — ولكن لم يكن هناك من يهتم بهما لأن طلبات المعونة والحماية والتعويض كانت كلها تقدم لإحدى هذه السفارات كأنها الجهة أو السلطة صاحبة الشأن فى البلاد ، وكان عملنا سائراً لا تشوبه غيرة أو تنازع على المصالح ، وإنما باتفاق تام ساعد عليه كثيراً تآلفنا الشخصى .

وكنت قد استحضرت معى علماً إيطاليا من إحدى البوارج أسرعت برفعه على دار السفارة بعد أن قنا بتحية إنزال العلم الأسبانى الذى كان يرفرف عليها طوال مدة سنوات الحرب الطوال ، وما كادت الموسيقى تعزف ألحان النشيد الوطنى الإيطالى حتى اجتمع عدد كبير من الأهالى مكون من يونان وأرمن ويهود وبعض الترك ، الذين لم يظهر عليهم أى مظهر عدائى نحونا .

لقد اقتنع كثيرون من أن حملة الدردنيل كانت نكبة من الوجهة العسكرية لما سببته من النتائج الخطيرة التى أطالت مدة الحرب ، ولكنى تيقنت من ذلك حينما أقمت باستانبول بعد الهدنة لما علمته من بعض السلطات التركية من أن القواد الترك دهشوا لما رأوا انسحاب القوات البحرية فى الوقت الذى بدأت فيه قوى المدافعين تخذلهم — فكأنهم لم يشعروا بانتصارهم إلا بعد انسحاب عدوهم — وهذا دليل جديد على أن العامل النفسى هو أساس كل انتصار حربى .

وقد دهشت كثيراً عند وصولى استانبول وبعد زيارتى لبروسة من وفرة المؤن والمحاصيل الغذائية فى البلاد ، لأن إيطاليا تأثرت كثيراً من حالة الضيق التى كانت فيها مدة الحرب . ولعلى بوجود جالية إيطالية كبيرة فى تركيا ، كنت أنتظر أن أجدها فى شبه مجاعة ، فاستحضرت من إيطاليا كميات كبيرة من الدقيق لتوزيعها على أفراد الجالية — فتوجهت حينما علمت أن الجالية ليست فى حاجة إلى شىء من المعونة وإن أفرادها يفضلون الدقيق التركى الممتاز ببياض لونه وتفاوته على الدقيق الإيطالى — وعلمت من ذلك أيضاً فداحة ما تحمله الحلفاء بسبب إخفاق حملة الدردنيل؟ ولكن الماضى قد انتهى الآن وليس أمامنا إلا مواجهة الحقائق التى أمامنا .

اقتنعتني هذه الحقائق منذ البداية أن تركيا لم تكن قد ماتت بل بالعكس كانت الحكومة المركزية تمثل وحدها الجزء الفاني المحطم في البلاد، أما تركيا الحقيقية فكانت موجودة يستطيع من يريد أن يلمسها، فكان في اعتقادي من خطل الرأي محاولة تضييق حبل الخناق كثيراً — لأن في تضييقه انتقال تركيا إلى آسيا وبقاءنا نحن في استانبول وسط بلد مهجور.

هذا الرأي الذي كونته لنفسي عن الحالة والمستقبل بادرت بإخبار حكومتي به وأبلغته في نفس الوقت إلى مؤتمر باريس. وصارحت روما بأني لا يسعني أن أخدم بلادي الخدمة الحقيقية إلا إذا حصرت الجهد كله للوصول إلى صلح عاجل يعطي إيطاليا كل المزايا الممكنة في الأراضي التركية بشرط الإقلاع عن أي فكرة ترمي إلى اقتسام على وحدة البلاد.

ولم أكن أجهل المشروع الذي وضع لتقسيم الأراضي التركية إلى مناطق نفوذ بين الدول، وأعلم أيضاً أن هذا المشروع يوافق هوى الدوائر الرسمية في باريس، ولكني لم أعط نفسي حق الوقوف عند ذلك — بل تيقنت أن رأيي هو الذي يلتئم مع الحقائق التي أمامي، وأن من الواجب على لمصلحة بلادي أن أصارحها به لعلمي أنه يغلب في النهاية أن يكون الرأي المتبع.

وكنت أنتظر من الحكومة استدعائي من مركزي بعد تصريحي بهذا الرأي ولكن لم تبد من جهة أورلاندو ولا سونينو (أولهما رئيس الوزارة والثاني وزير الخارجية) أي بادرة لمعارضتي في هذا الرأي مما دل على موافقتهم لي ضمناً — وإنما كتب لي سونينو بعد ذلك، بصراحته المعروفة، أنه إذا أظهرت الأيام فساد هذا الرأي وعدم مطابقته للواقع فإنه سيترتب على ذلك تنصل الحكومة الإيطالية من تبعة أعمالي وإعلانها عدم موافقتها على سياستي.

* * *

وكان السلطان شديد الإيثار على رأي حتى ينقضه مهما يستقبل عائلته أكثر من اهتمامه بمستقبل بلاده وشعبه. وكان في مظهره وحركاته مثالاً تاماً لسليل عائلة انتهى عملها وظهرت بوادر فنائها.

واختار له وزيراً أول الداماد فريد باشا؛ وهو كما يدل عليه اسمه صهر للبيت المالك بزواجه من الأميرة خالدة، وهو مثل لما تعرفه التربية الإنجليزية في عقلية شرقية، لأنه أتم دراسته في أكسفورد وتأثر من ذلك بخروج صورة تامة للجنتلمان الإنجليزي.

ولما كانت الدوائر التركية في سبات تام لا تبدو من جهتها بادرة حياة، اقتنع الرجال المنوط بهم الاتصال بالوفد جورج وكيرزون أن تركيا قد أصبحت طوع أيديهم وفي وسعهم أن يفرضوا عليها ما تشاء أهواؤهم — ويرجع معظم الخطأ إلى أن هؤلاء الأفراد وممثليهم ودعاتهم وماجوريهم أبوا من البدء أن يتصلوا بأي فرد من الترك الذين تكونت منهم النواة الأولى لحكومة أنقرة — وقد ساق لي الحظ مقابلة بعض هؤلاء الترك في منزل مهندس إيطاليا والتحدث إليهم في نادي «السيركل دوريان» تحت أنظار زملائي الذين احتاروا من ذلك.

وقد شعرت من أول وهلة أن هؤلاء الرجال لم يحاولوا قط تضليل بل فاتحوني بصراحة تامة قائلين إنه إذا اشتدت الحال ببلادهم فإن وسعهم أن يحافظوا على استقلالهم مهما كلفهم ذلك ولو بانسحابهم جميعاً إلى آسيا.

* * *

ولذلك لم أتردد في أن أصرح برأيي حينما أبلغني الأميرال كالثروب في ١٢ مايو سنة ١٩١٩ قرار مؤتمر باريس القاضي باحتلال اليونان لأزمير — من أني مقتنع تمام الاقتناع أن مسائل الشرق الأدنى ستزداد تعقداً، وقد تدخل دوراً عاصفاً بالحوادث الناجمة — ولكن الأوامر التي صدرت إلينا كانت قاطعة ولم يكن هناك مناص من إطاعتها وتنفيذها.

وقد تم إنزال الجنود واحتلال المدينة بالشكل الذي كنت أتوقعه أي بعمل حربي مجرد من القتال ولكنه مقرون بالدماء. وقد اتضح لي خطأ أتينا في اليوم الذي احتفلت برفع علمها الأزرق على قلاع أزمير بعد معركة تمثلت فيها البطولة كما نقلت إلينا البرقيات في حينه.

وكانت الجنود التركية وقت مباشرة الاحتلال بواسطة القوات اليونانية ملازمة لثكناتها، مطيعة للأوامر التي صدرت إليها من الحكومة وحملها رسل من طرف الداماد مؤكدين بأن الاحتلال مؤقت وسيزول في القريب — وكانت المدينة خالية من